موقع الدراسات
القبطية والأرثوذكسية

د. جـــورج حبيب بباوي

محاضرات في تجسد الكلمة

للقديس أثناسيوس الرسولي

المحاضرة الأولى

www.coptology.com

Coptology

محاضرات في تجسد الكلمة

للقديس أثناسيوس الرسولي

المحاضرة الأولى

دكتور

جورج حبيب باوي

٢٠٠٩

www.coptology.org

سبعون عاماً ونصف قرن مع كتاب تجسد الكلمة للقديس أثناسيوس الرسولي

عودٌ على بدء:

عبرتُ السبعين يوم ٢٧ نوفمبر الماضي ٢٠٠٨، وذكريات السنوات "السبعين" تحمل بين ثناياها تفاصيل رحلة طويلة رتَّب الله نفسه مراحلها، كما رتَّب أيضاً أن يتواجد فيها العديد من الأشخاص الذين كان لهم الفضل الأول في توجيه مراحل مسيرة العمر.

كنا نسكن في ٢١ حارة عبد الجواد – مصر القديمة، وفي نهاية الحارة كان يقبع أول مسجد بُني في مصر، وهو مسجد عمرو بن العاص. وكان كل الساكنين في هذه العمارة من المسيحيين. وقد رتَّب الله أن يكون الأستاذ جورج قدسي هو أحد السكان معنا، ولكنه قرر الانتقال إلى حلوان، وكان مشتركاً في مجلة صهيون التي كان يصدرها الأسقف الأنبا إيسيذوروس، وعندما ترك مصر القديمة طلب مني أن أجمع له كل البريد الخاص به واحتفظ به، وقال إنه يسمح لي بقراءة مجلة صهيون. وكان أول ما قرأت فيها هو تاريخ الكنيسة الشرقية للمستشرق الإنجليزي ستانلي، وقصة حياة القديس أثناسيوس، وما احتوته من تفاصيل النفي والتشريد والمحاكمة أمام مجامع الأريوسيين. ولم أكن أعرف إلاَّ القليل جداً عن تاريخ الكنيسة، ولكن الإعجاب بالقديس أثناسيوس ملأ قلبي، فحاولت أن أجد كتاباً واحداً لهذا القائد العظيم، ولكني لم أعثر على شيء.

رتَّب الله أيضاً أن تكون هناك علاقة صداقة قوية مع زميل في مدرسة الفسطاط الثانوية هو الأستاذ كيرلس ثابت سلامة، ولما عرف برغبتي الحارة في الإطلاع على تاريخ الكنيسة، أعطاني كتاباً يملكه عمه هو كتاب "تاريخ الكنيسة القبطية" للقس منسى يوحنا، فقرأته في ثلاثة أيام. وبعدها قدم لي الأستاذ حمصي ثابت سلامة كتاب الخريدة النفيسة للأسقف ايسيذوروس، فقرأته في يومين. كنت أحب التاريخ، ولازلت أعتقد أنه أحد مفاتيح الثقافة في أي بلد. ومن مكتبة أبي المتواضعة قرأت "فجر الضمير" لجيمس هنري برستيد، ومقالات المجلة الجديدة لسلامة موسى، وكان أبي من عشاق المجلة، وسلسلة الأدب العالمي.

لكن أثناسيوس ظل قابعاً في أعماق قلبي.

رتَّب الله أن ألتقي بالدكتور شفيق أسعد إبراهيم في كنيسة مار مينا بمصر القديمة، وكان من أخلص أبناء القمص مينا المتوحد. وكان قد درس في انجلترا وعاد ومعه مجموعة من الكتب، هي سلسلة آباء الكنيسة قبل وبعد نيقية.

وكان ضمن هذه المجموعة طبعة خاصة لكتاب تجسد الكلمة صدرت في لندن ١٩٢٤م، وقدَّم لي معها الترجمة العربية للأب الفاضل القمص مرقس داود، والتي صدرت عن جمعية المعارف المسيحية التابعة للكنيسة الأسقفية في مصر في عدة طبعات.

قرأت الكتاب باللغتين الإنجليزية والعربية، وساعدتني الترجمة العربية، وأعترف بأنني لم أفهم كل ما فيه، ولكن ثلاثة ملامح أساسية رسخت في عقلي وقلبي:

أولاً: إن الخلق من العدم هو عمل النعمة الإلهية.

ثانياً: إن الصورة الإلهية التي أعطيت للإنسان هي عطية مضافة، أو ثانية لنعمة الخلق من العدم.

ثالثاً: إن الخلق وتدبير الخلاص هو استعلان صلاح الله، ولذلك جاء التجسد

تعبيراً عن محبة الله الخاصة للبشر.

عندما أصبحت طالباً في القسم النهاري بالكلية الإكليريكية كانت أول زيارة لدير السريان العامر في يناير ١٩٥٩م، وكانت عادة رهبان دير السريان إصدار ميمر في عيدي الميلاد والقيامة. وجاء ميمر عيد الميلاد هذه السنة عن تجسد الكلمة، وكان كاتب هذا الميمر هو الراهب انطونيوس السرياني (الأنبا شنودة الثالث بعد ذلك). ولكن عندما قرأ الميمر في المضيفة في صباح العيد، كان العرض مختلفاً تماماً عن كتاب تجسد الكلمة لأثناسيوس.

فقد عرض الراهب أنطونيوس السرياني الموضوع على هذا النحو:

- لقد أخطأ الإنسان ضد الله خطية غير محدودة.
- وبالتالي يكون العقاب غير محدود.
- لذلك جاء الابن ودفع الترضية.

لا شك أن مصدر هذه الأفكار هو محاضرات اللاهوت النظري للأب الكاثوليكي أوجين دي بليسي، والتي نشرها أستاذنا حبيب جرجس في مجلة الكرمة. كان واضحاً أن الراهب أنطونيوس لم يكن قد قرأ كتاب تجسد الكلمة؛ لأنه – كما قال في حديثه – يشك في صحة ما كتبه أثناسيوس؛ لأنه وصلنا عن طريق الكاثوليك والبروتستانت.

التاريخ هو المفتاح المفقود:

الاتهام الموجه لكتابات الآباء بالتزوير، لا يعدو أن يكون محض خيال. وهو اتهام غير تاريخي وغير موثق، وهو لا ينفصل عن فخ الرواية الذي وقعت فيه الثقافة في العالم العربي بشكل عام.

صحيح أن التاريخ قصة، ولكن الفرق بين التاريخ والقصة كبير:

١– فالتاريخ شهادة موثقة، هو وثائق من شهود عيان أو من معاصرين لأحداث كتبوا عنها، ولذلك يتجاوز التاريخ "السرد" إلى تقديم الوثائق.

٢– والتاريخ ليس فقط مدونات من جهة واحدة، بل هو مدونات لكل من شاهد أو سمع أو قرأ، هو جمع كل القرائن والوثائق، حتى تلك التي يسجلها الأعداء.

أمَّا القصة فهي سرد بلا وثائق؛ لأن القصة مؤلَّفة في الأساس.

كانت نقطة التحول لديَّ في إدراك ضرورة العودة إلى المراجع هي زيارة المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي إلى مصر بدعوة من جريدة الأهرام، وكان أستاذنا الفاضل سليمان نسيم هو الذي اصطحبني إلى محاضرة له ألقاها في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، يؤسفني حقاً أنني لا أتذكر تاريخها، ولكني أتذكر أنني كنت وقتها معيداً في القسم النهاري. وبعد المحاضرة قال سليمان نسيم إننا في حاجة إلى "توثيق التاريخ". إن ما نشر عن التاريخ القبطي هو مجرد "سرد"، و"فن كتابة التاريخ من الوثائق" ليس مثل "فن السرد".

لقد أتقن الشرق "فن السرد".

وهكذا جاءت الكتب الكبرى لإيريس حبيب المصري – القس منسى يوحنا ومذكرات أستاذنا الفاضل الأب أنطونيوس البراموسي أستاذ التاريخ سرداً يحتاج إلى مراجعته والتدقيق فيه، وهكذا اعتمدنا على الرواية وعلى مكانة "الراوي"، ولكننا لم نبحث في مصادر الرواية، وفي مدى معرفة "الراوي" بالتاريخ من مصادره، وما بذله من جهد في تحقيق ما جاء فيها.

فهل يمكن الطعن في صحة انتساب كتاب تجسد الكلمة للقديس أثناسيوس؟

في تلك الفترة، أي الستينات لم يكن لديَّ سوى جواب واحد، وهو أن الاتهام غير المستند إلى دليل هو باطل لا يستحق البحث، وإن كان أحد الأدلة التي ساقها الراهب أنطونيوس السرياني على تزوير كتاب تجسد الكلمة هو أن أثناسيوس

يكتب عن طبيعتين في المسيح، وهذا تعليم غير أرثوذكسي. في حين أنك إذا بحثت عن كلمة "طبيعة" في كتاب تجسد الكلمة لا تجدها بالمرة، حتى ولا في الترجمة العربية.

أثناسيوس يكتب عن الناسوت وعن لاهوت الكلمة، ولكنه لم يستخدم كلمة طبيعة بالمرة في كتاب تجسد الكلمة، وتعد نفس الملاحظة صحيحة أيضاً بالنسبة للمقالات الأربعة ضد الأريوسيين.

وبالتالي فالاتهام بالتزوير هو مجرد اتهام باطل.

تاريخ العقائد المسيحية هو المفتاح الضائع

تعرفت بالأستاذ حبيب سكاكيني، وفي ذلك الوقت كانت مجلة "الصخرة الأرثوذكسية"، وأبحاث الأستاذ فرنسيس العتر تعد من المصادر الرئيسية في دراسة الأساس التاريخي للأرثوذكسية. وكنت لا أزال طالباً في القسم النهاري، وقد تزامن هذا مع يوم روحي بعد رسامة البابا كيرلس السادس في ذكرى الأستاذ حبيب جرجس. وألقى د. نصحي عبد الشهيد محاضرة عن "الكنيسة الأرثوذكسية" كان لها وقع خاص، فقد جاء الكلام جديداً عميقاً. وعندما سألته عن مصدر المحاضرة تطوع وأعطاني كتاب "الكنيسة الأرثوذكسية" باللغة الإنجليزية للأب بولجاكوف، ثم مجلد أعداد سنة كاملة من مجلة النور. وبدأ السؤال الأصلي يظهر بوضوح.

كانت الإرسالية الأمريكية قد نشرت ترجمة عربية لكتاب موسهيم "تاريخ الكنيسة". وجاء هجوم حاد عنيف في كتاب "ريحانة النفوس في أصل العقائد والطقوس" للقس بنيامين شنيدر. كان هجوم الإرساليات حاداً، ولكنه كان يقابَلُ بصمت غريب، هو بكل تأكيد صمت من لم يتخصص في دراسة تاريخ العقائد، وهو فرع من أفرع الدراسة، لم أكن قد سمعت عنه حتى ذهبت إلى بعثة جامعة كامبريدج.

لماذا نتقدم في بطء شديد جداً؟

عندما أنظر إلى قرابة نصف قرن من الزمان قبل وبعد رسامة البابا كيرلس حتى عصر الأنبا شنودة أجد أن التقدم نحو معرفة تراثنا يسير في بطء شديد جداً، ويمكن أن نضع تحت بصر القارئ الحقائق الآتية.

أولاً: مقاومة عنيفة من بعض الأساقفة – وعلى رأس هؤلاء الأنبا شنودة نفسه – لكل ما يُترجم ويُنشر. وهذه شهادة للتاريخ، فعندما ترجمت كتاب شرح تجسد الابن الوحيد للقديس كيرلس السكندري إلى العربية، ظلت مخطوطة الترجمة في درج مكتب الأنبا شنودة سنة كاملة لا يريد أن ينشرها. وكان لأستاذنا الفاضل وليم سليمان الفضل الأول في نشر الكتاب، بعد أن تطوع أحد الآباء الكهنة بالتمويل (لا داعي لذكر اسمه حتى لا يبطش به أحد). ونفس القصة سمعتها من الأب مرقس داود عن مخطوطة عظات القديس كيرلس السكندري على إنجيل لوقا التي فُقدت في أضابير البطريركية، ولم تنشر إلاَّ بعد مرور نصف قرن على الترجمة الأولى التي ضاعت كما يقول الأنبا شنودة. وقد قام بنشرها مركز دراسات الآباء بالقاهرة في ترجمة للدكتور نصحي عبد الشهيد.

ثانياً: عندما ظهر كتاب الأستاذ فتحي عثمان "المسيح في الأناجيل الأربعة"، ومن قبله كتاب الأستاذ أبو زهرة "محاضرات في النصرانية" لم يكتب أحد رداً. بل لم يكتب أحد رداً على كتاب الدكتور نظمي لوقا "محمد الرسول والرسالة" سوى القمص مرقس سرجيوس، وكان مشلوحاً بقرار من الأنبا يوساب.

وطبعاً لا يمكن أن تجد لذلك سبباً إلاَّ انعدام التخصص، وتلك حقيقة. ولكن خلف ذلك تكمن الحقيقة الأكبر وهي انحطاط مستوى مناهج التعليم.

ثالثاً: عندما عدت للتدريس في القسم النهاري بعد عودتي من البعثة ١٩٧٠ حاولت تدريس مادة جديدة وهي قراءة نصوص التاريخ. ولعل طلبة السنة الثالثة

يتذكرون ذلك، ومن هؤلاء في ذلك الوقت، ميخائيل ادوارد – ماكس ميشيل – ممدوح جبانية – كمال كامل، وهؤلاء الآن يخدمون في الكنيسة ما عدا ماكس ميشيل الذي له قصة فريدة، وهي أنه أراد أن يكتب بحثاً عن "الخطية الأصلية" ليقدمه لأستاذنا الأنبا غريغوريوس وساعدته في البحث، وكانت أهم نقاط البحث أن الاسم "الخطية الأصلية"، هو اسم لاتيني لا وجود له في المصادر اليونانية والقبطية وأن الاسم الآبائي هو خطية آدم – الخطية الأولى، أو المعصية القديمة. وأن اسم الخطية الأصلية يعود إلى القديس أوغسطينوس.

ورسب الطالب ماكس ميشيل وبقى لسنة أخرى بسبب هذا البحث، فقد جاء هذا البحث ضد ما ورد في مذكرة البيلاجية لأستاذنا الأنبا غريغوريوس. وأحسست بالندم، ولكن بدا واضحاً أن البحث التاريخي مرفوض تماماً؛ لأنه يزعزع مكانة "الراوي"، وكانت عقوبتي هي قرار من الأنبا غريغوريوس بمنعي من التدريس، والسماح لي بتدريس اللغة الإنجليزية فقط. وهو قرار مقنَّع بأنني لست من أهل الثقة وإيماني مشكوك فيه، وكان القرار بموافقة وبركة الأنبا شنودة الذي كان قد جلس على عرش مار مرقس.

بعض ملامح الموت الفكري:

أذكر الآن طبيباً مصرياً كان قد كتب قصة بعنوان "التقدم للخلف". كان للرقابة وقفة مع هذه القصة، ولكن الرئيس عبد الناصر سمح بنشرها. وبعدها توقف الطبيب عن الكتابة. جاء هذا الطبيب مع أحد كبار رجال الأمن لزيارتي، وكنت لا أزال أحد المقربين من الأنبا شنودة. وجاء رجل الأمن ومعه ملف مجلة الكرازة، وكانت تصدر أسبوعياً. وقرأ خبراً لاحظت أنه أُحيط بمداد أحمر "القداسات القبطية تلف الكرة الأرضية" وسألني ما معنى هذا؟ طبعاً مَن يقرأ الكرازة كقبطي ليس كمن

يقرأها في الأمن المصري. وحاولت إقناع اللواء بأن هذا مجرد دعاية لقيادة جديدة تحاول إبراز الإنجازات على طريقة وأسلوب الرئيس جمال عبد الناصر. ولكن الرجل أجاب بحدة: عبد الناصر كان بيتكلم مع شعب مصر، ولم يكن زعيماً لأقلية دينية تحاول عن جهل بعث زعامة دينية قبطية، الأمر الذي يترتب عليه خلق زعامة إسلامية مضادة.

وكان مجمل اللقاء هو محاولة إقناع البطريرك بـــ:

١- بإلغاء اجتماع الجمعة الذي خلق اجتماعات موازية في المساجد المجاورة.

٢- بمراجعة ما يُنشر من أخبار الكنيسة ولا داعي كما قال الرجل أن تخلع الكنيسة ملابسها وتقف عارية أمام مجتمع يلعب فيه الشعور الديني دوراً كبيراً.

وانصرف الرجلان، ولكنني فزت فقط بنسخة من "التقدم إلى الخلف"، وبدأ اهتمامي بما كتبه الأدباء نجيب محفوظ – فتحي غانم – صنع الله إبراهيم .... الخ. ربما كانت العودة إلى القصة المصرية هي بعث حركة التنوير.

ولكن كما يقول المثل "تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن"، فقد استقال وكيل الإكليريكية من التدريس، ونكاية في الأنبا غريغوريوس أعادني الأنبا شنودة إلى التدريس، بل أعطاني مسئولية وكالة القسم المسائي.

ولكني أدركت في هذه الفترة أننا دخلنا في مراحل الموت الفكري البطيء، وهذه هي ملامح هذا الموت.

أولاً: الصراع على القيادة:

يبدأ الموت البيولوجي عندما تتراجع أجهزة الجسم عن العمل حتى تتوقف في النهاية. وعندما يدخل جهاز من هذه الأجهزة في صراع مع جهاز آخر، فإن موت الجسم يصبح حتمياً. وعندما تتصارع قوى الأقلية – كما يقول – فرانز فانون في

"بؤساء الأرض"، فإن الصراعات العقائدية - بشكل خاص – تتكفل بأن يتسلل الشلل والموت البطيء إلى الكيان. كان هذا هو مصير الثورة البلشفية، وبعد أكثر من نصف قرن جاء ميخائيل جورباتشوف، وحاول التقدم، لكن صراعات أجهزة الحكم والقيادات لا يمكن أن تحسم في جيل واحد، بل تمتد لكي تقتل كل القوى الحيوية. وما حدث عندنا لا يخرج عن هذا التنظير، فقد سطع نجم الأب متى المسكين في هدوء. وبدأ يشغل الحياة الفكرية. وهكذا كان القائد الحقيقي هو الأب متى المسكين، فهو معلم "المثقفين" ورائد التنوير واسترداد التراث، ولكن من ناحية أخرى جاء الهجوم بالشتائم، وقص عبارات ولصقها بشكل يخلق اتهامات يعلم الذي صاغها أنها كاذبة.

ثانياً: غياب الوعي:

بعد رحيل الرئيس جمال عبد الناصر، كتب توفيق الحكيم "عودة الوعي" وكان صرخة لاسترداد الديمقراطية وحرية التعبير، ولكن كما هو ثابت في علم الاجتماع أن الأكثرية تتعافى بسرعة أكثر من سرعة الأقلية؛ لأنها تملك حرية أكثر، مصادر أكثر، ثقة أكبر، ونسبة الخوف والقلق أقل بكثير، لكن الأقلية حريتها أقل، مصادرها أقل، الثقة والأمان رهينة بما تقدمه الأكثرية. ويحكم الخوف والقلق حرية الأقلية.

ما هو المقصود بالوعي الغائب في الكنيسة القبطية؟

هو الوعي بتراجع برنامج التعليم الديني وإعداد المؤهَّلين والمتخصصين. كانت الكنائس الشرقية الأرثوذكسية قد وضعت أحدث برنامج لمدارس الأحد، واشترك فيه سريان – هنود – أرمن – أقباط، وكان أحد هؤلاء هو الأب أنطونيوس أمين. وطبع المنهج لكي يسجنه الأنبا شنودة و لم ير النور.

وتراجعت برامج التعليم، بل وتأخرت مؤسسات التعليم. فقد أغلقت مكتبة

معهد الدراسات القبطية أبوابها طوال ٢٠ سنة، ولم يكن مصير مكتبة الكلية الإكليريكية أحسن حالاً. وشتَّت القيادة الكنسية المبعوثين الذين – مثل غيرهم من علماء مصر – فضَّلوا النجاة بأنفسهم، فلم يعد بعضهم إلى مصر.

وهكذا، رُسِمَ للكهنوت: الأنبا باسيليوس مطراناً للقدس. الأب الياس مرقس لكندا. الأب روفائيل نخلة لكندا.

– وهرب كل من: د. كرم نظير خلة. د. مرقس بولس.

– وعاد ليعيش تحت حزام الفقر بكل ما في هذه الكلمة من معاني مؤلمة: د. موريس تاوضروس. د. رشدي حنا. د. وهيب جورجي.

– منع من الخدمة والتدريس — بلا استثناء – كل المبعوثين إلى اليونان.

وقد انعكس كل هذا على الحياة الفكرية للكنيسة، وذلك لانعدام الأجهزة الحيوية التي تضخ الدم في الكيان فتجدده وتفعمه بالحياة، وسوف نتكلم فقط عن وسيلتين هما: الدوريات والبعثات:

أولاً: الدوريات

ولكن الدوريات لها جهاز واحد، وهو أقلام المتخصصين. ولها أرضية واحدة، هي مؤسسات التعليم، مثل معهد الدراسات القبطية الذي سقط في هوة انعدام المتخصصين في: التاريخ — القانون — الآثار، وظل قسم الفن يعمل بقدرات الفنان إيزاك فانوس. وقسم الموسيقى بالتضحية الهائلة للأستاذ راغب مفتاح.

ثم ما هو مصير معهد الكتاب المقدس؟ الذي بلا مكتبة وبلا أساتذة.

وبعد أن تم إبعاد د. وليم سليمان قلادة، وكذلك د. عوني برسوم عن قسم القانون الكنسي، يتطوع الأنبا شنودة – الذي لم يدرس القانون الكنسي – بالهجوم على المجموع الصفوي لابن العسال، دون أن يقدم البديل.

في غياب الجهاز والأرض، ليس لدينا إلاَّ مجلة الكرازة التي يرأس تحريرها البابا

شنودة!!

ثانياً: البعثات:

إن دور البعثات دائماً ما يكون محدوداً بما توفره المؤسسات من فرص كريمة. وبما يسعى إليه المجتمع نفسه نحو التقدم والحرية. فإذا كانت القيادات الكنسية تبث الرعب في النفوس (من الغرب)، فهل يمكن أن نتصور أن تنشط البعثات في هذا الجو؟ إن السؤال الذي يجب أن نجد إجابة عليه هو: كم مبعوث أرسلته الكلية الإكليريكية للحصول على درجات علمية من الخارج منذ ما يزيد عن ربع قرن مضى؟!!!

بداية السبي

عندما حاولت أن أقول كلمة حق من أجل الأب متى المسكين ومن أجل الأنبا غريغوريوس، وجدت نفسي أحسب الأيام الباقية قبل أن يصدر قرار الإعدام، الذي صدر بالفعل عدة مرات من قبل.

القرار الأول كان ضربةً للكلية الإكليريكية فرع طنطا.

فقد كانت الفترة من ٨٢ - ٨٤ فترة صراع يدور حول البحث الدائب عن الاتهامات، وعندما لم يجد ما كان يبحث عنه، خلق ٣٩ اتهاماً كاذباً أرسلها بيده إلى الأنبا يؤانس، وبخط يده كتب الأنبا شنودة: "هل هذا يرضي ضميركم"؟

ومع ضخامة القائمة لم يتجاسر على محاكمتي، فقد حاول ذلك في ١٩٧٩ بعد أن صدر كتاب عن المرأة، نشره مجلس كنائس الشرق الأوسط وقد تضمن الكتاب الفصل الخاص بتطور "النظرة إلى التطهيرات الجسدية"، والذي قمنا فيما بعد بنشره في مذكرات أقامت الدنيا ولم تقعدها حتى هذه اللحظة. وقد حاول الأنبا شنودة محاكمتي في دير الأنبا بيشوي بحضور الأنبا يوأنس – الأنبا ثيئوفيلوس – الأنبا صرابامون – وأخيراً الأنبا بيشوي الذي كان أكثر من أبدى حماسة في تأييد سيده، في

حركة عكسية لما عمله ربنا يسوع المسيح الذي حررنا من كل قيود الناموس. ويهمنا أن نؤكد أن هذه المحاولة فشلت فشلاً زريعاً؛ لأنه:

١- لم يكن لديه قرار محدد باتهام محدد خاص بالعقيدة.

٢- كان محور الاتهام هو "طمث المرأة" الذي لا يوجد بشأنه أي قانون كنسي في الألف سنة الأولى من تاريخ الكنيسة.

٣- وكان تعليم الآباء بقدسية الجسد بسبب تجسد الكلمة، وتحرر الجسد من الفساد الطبيعي والموت، ثم نوال سر المعمودية والميرون والإفخارستيا وهي أسرار الانضمام إلى المسيح هي دفاعنا الذي قدمناه ومعنا الآباء، وهكذا وجدنا أنفسنا نعود من جديد إلى كتاب "تجسد الكلمة"، حتى يتضح لنا الفارق بين الكيفية التي يفهم بها القديس أثناسيوس تجسد ابن الله، والطريقة التي يفهمه بها الأنبا شنودة ومن لف لفه من الأساقفة.

خليط من الفلكلور والهرطقات القديمة:

إذا ما حاولنا تفكيك فكر بعض القيادات القبطية المعاصرة ورده إلى مصادره الأصلية، فإننا وبكل ما يمكن أن يصل إليه إنسان من "موضوعية"، يمكننا وضعه تحت واحد من أربعة احتمالات تؤيدها مقالات الكرازة "بدع حديثة"، وبعض عظات الأنبا شنودة نفسه:

الاحتمال الأول

هو النظرة الشخصية الضيقة التي ترسَّبت بحكم الولادة والتعليم في بيئة غير مسيحية. فمن المعروف لدينا جميعاً أن طمث المرأة يمنعها من الصلاة حسب مدارس الفقه الإسلامي. هنا يلتقي الإسلام مع التوراة التقاءً كاملاً وتاماً. هكذا يقرأ الأنبا شنودة ومعه عدد من الأساقفة سفري اللاويين والتثنية، أي من خلال ما ترسَّب في

وجدانهم من أفكار إسلامية تجد لها صدى في العهد القديم.

والنتيجة التي يمكن أن تترتب على هذه القراءة هي زوال العهد الجديد نفسه، ويصبح كأنه لم يكن.

فبعد أن طُبعت المذكرة الخاصة بتطور النظرة إلى التطهيرات الجسدية، أثار بعض الآباء كهنة الغربية الغبار. وتم اللقاء في مطرانية الغربية، وحدث حوار جاد وأمين بحضور المتنيح الأنبا يوأنس.

وقد انحصر الحوار كله حول نقطتين:

الأولى: هل تلغي إفرازات الجسد سر المعمودية، وهو الموصوف في كل كتب الطقوس الأرثوذكسية بأنه "سمة لا تمحى" و"خاتم لا ينكسر"؟

دُهشت تماماً لما ساد من صمتٍ قطعه الرجل النبيل – الأنبا يوأنس – بتقديم الشاي.

لم يلتفت هؤلاء الآباء بزعامة واحد منهم إلى أنهم يهدمون "سر المعمودية" بالإدعاء بأنه يوجد تطهير بالماء أو تقديس بالاغتسال بالماء. وكأن حميم الميلاد الجديد أي "اغتسال الولادة الثانية من فوق بالماء وبالروح القدس" لم يعد له وجود بالمرة.

النقطة الثانية هي: هل يؤمن كل الذين يدخلون الهياكل ويصلون القداسات ويتناولون جسد الرب ودمه، بأنهم يتناولون "جسد المسيح الممجد، أم أنهم يتناولون جسد المسيح قبل القيامة؟ وجاء السؤال غريباً على آذان بعضهم. هل نحن نشترك في جسد آدمي طبيعي، أم جسد ابن الله الكلمة الذي لم ينفصل لاهوته عن ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين؟

وساد صمتٌ جديد. لأننا إن كنا نتناول جسداً آدمياً مثل أجسادنا، فإننا – كما قال القديس كيرلس السكندري – نصبح من "آكلي لحوم البشر"، وهذا يهدم سر الإفخارستيا من جذوره.

انتهى الحوار على أن النظافة شيء لا علاقة له بالتقديس، وطبعاً برز موضوع "وقار واحترام الأسرار"، وهو موضوع يدخل في التقدير الشخصي، وحُكم الضمير، وظروف من يرغب في التناول، وليس له علاقة بالعقيدة أو الممارسة الصحيحة.

الاحتمال الثاني

هو اعتناق تعليم نسطور، وهو احتمال مبني على نص صريح عند الأنبا شنودة يقول فيه إننا نتناول الناسوت لأن الرب لم يقُل "خذوا كلوا هذا هو لاهوتي". هذا الاحتمال وارد – حسب كلمات الأنبا شنودة نفسه – وبالتالي لم يدخل تجديد الجسد في تدبير الخلاص في النسطورية التي أنكرت الاتحاد الأقنومي لله الكلمة، والمجد الإلهي الذي أخذه هذا الجسد بسبب الاتحاد الأقنومي حتى أنه صار "الجسد المحيي" حسب اعترافنا في الليتورجية.

الاحتمال الثالث

هو مجرد مقاومة الأب متى المسكين لإضعاف دوره الرائد، وإن كان هذا يتم على حساب الإيمان والعقيدة، وهو أمر خطير جداً يجب أن يقاوم بكل ما نملك.

الاحتمال الرابع

وهو أضعف الاحتمالات، وهو وقوع الأنبا شنودة وسقوطه في بدعة "أوطاخي"، وهو ما تجده تحت الاعتراضات التي أبداها على الشركة في الطبيعة الإلهية، حيث قال إن الشركة في الطبيعة الإلهية تعني تحوُّل الإنسان إلى إله غير محدود، بلا خطية .. الخ كل ذلك من تحولات تنكر بقاء الطبيعة المخلوقة، أو الإنسان كإنسان؛ لأن – حتى – الناسوت في الاتحاد الأقنومي ظل طبيعة إنسانية رغم المجد الإلهي وعدم الموت وعدم الفساد الذي ناله بالاتحاد.

وهذا الاحتمال، رغم ضعفه، يجد سنده فيما كتبه الأنبا شنودة من مقالات ضد شهود يهوه، كانت قد نشرت في مجلة مدارس الأحد، يقول فيها إن المسيح هو الله لأن جسده إلهيٌ من الروح القدس. في حين أن الحقيقة الإيمانية تؤكد على أن الجسد المولود من العذراء القديسة مريم ليس جسداً إلهياً، بل جسد بشري حسب تعبير أبينا العظيم حقاً في البطاركة – بدفاعه عن الإيمان — والذي هو وحده – دون غيره من بطاركة الإسكندرية – ثالث عشر الرسل، الذي كتب عن جسد الكلمة قائلاً: إنه جسد قابل للموت مثل كل أجساد البشر.

تخبُّط

بالطبع، لا يوجد في الحقيقة خط واحد يربط بين هذه الاحتمالات، ولذلك ترى تخبطاً بين النسطورية التي تنكر الإتحاد الأقنومي، والأوطاخية التي تنكر بقاء الطبيعة الإنسانية، وبالتالي ذوبانها كنقطة الخل في مياه البحر.

والذين يدافعون عن "سيدهم" بكل أدوات الكذب، يظنون أن عبارة من هنا وعبارة من هناك تكفي لبناء دفاع حار مجيد، لكن ما هو ظاهر لكل من يؤمن بالمسيح أن إيماننا ليس إيماناً لفظياً يُرتزق منه، بل هو إيمان مَن يمسك في يديه جسد الابن الوحيد ربنا يسوع المسيح، ويقول بصوت الكنيسة الجامعة: جسد ودم عمانوئيل إلهنا، هذا هو بالحقيقة آمين. وبالتالي عندما يقولون إننا نأخذ الناسوت فقط، فهم لم ينكروا الإتحاد الأقنومي فقط، بل ينكرون تجسد ابن الله نفسه وعمل الفداء.